البلاغة العربية وعلم الأسلوب

دكتور/ عوض بن معيوض الجميعى

الأستاذ المساعد للبلاغة والنقد

بجامعة أم القرى

تقديم :

الهدف من هذا البحث إلقاء الضوء على أبرز، وأهم ملامح التشابه والاختلاف، بين مناهج البلاغة العربية ، وأبرز خصائص الدراسات والأسلوبية الحديثة، فى نمط يجمع بين الأصالة والمعاصرة والقديم والجديد.

وليتحقق هذا الغرض، فإنه يلزمه استعراض جهود علماء البلاغة العربية، وأهم مباحثها فى تحليل النصوص الأدبية وتفسيرها فى دراسة البيان القرآنى وإعجازه، ثم التعريف بأهم النظريات والمدارس الأسلوبية فى العصر الحديث، ومحاولة الوصول إلى جذور النظريات الأسلوبية فى البلاغة العربية.

ومع قناعة البحث- بادى ذى بدء- أنه ليس بالإمكان فى هذه العجالة؛ الإحاطه بجميع جهود علماء البلاغة العربية، ولابكل الدراسات الأسلوبية فى المذاهب الغربية الحديثة إلا أنه لابد من الاشارة إلى أهم الجهود، وأبرز النظريات لأهم البلاغيين والنقاد والأسلوبيين.

لقد أدرك الباحث أن هناك نقاط التقاء وافتراق، بين المصطلح البلاغى والمصطلح الأسلوبى، وأن المسألة بحاجه ماسه إلى البحث فى أعماق البلاغة العربية لاظهار العلاقات العميقة بين أجزائها، التى هى ثمرة جهد مستمر متصل من العلماء الذين تخصصوا فى فن البلاغة، ووضعوا نظرياته واستخلصوا أبوابه وفصوله، وجعلوا لها الحدود والتقسيمات إثر اطلاع واسع، وذوق متمكن، حتى أصبحت صالحة للأخذ والتعلم.

كما أن البحث فى البلاغة يعنى البحث فى علوم العربية، إذ أن منزلة علوم البلاغة من علوم العربية منزلة الروح من الجسد إذ لا مزية لكلام على آخر «إلا بما يكون فيه من لطائف الفصاحة والبلاغة، وخصائص المعانى

والبيان، لاسيما وأننا بهما نعرف إعجاز القرآن، وفضائل التنزيل، وندرك بهما فصاحة أسلوبه، وانسجام تأليفه، والجاهل بأسباب البلاغة والمحروم من ثمارها لايعرف الإعجاز إلا عن تقليد ومحاكاة، فخطرها عظيم، وفضلها عميم، ولهذا اتجهت إليها أنظار العلماء من قديم(١).

كان ذلك، لأن العربية وعاء الفكر ووسيلة التعبير عن المعانى والأفكار والتواصل بين بنى الأمة، وهى الوعاء الذى حفظ لنا كنوز تراثنا المجيد، إذ قد نطق الشعراء بأعذب الكلام، وتحدث البلغاء بأروع الحكم وأبلغ الاساليب، وأصبحت العربية حين نزل بها القرآن الكريم ونبضت القلوب بالإيمان لغة الدين والعلم ووعاء الحضارة(٢).

لقد أدرك السلف جمال العربية وبلاغتها، وعملوا على معرفة أساليبها البليغة، وأمثالها الحكيمة، وقفوا على مسالكها فى الأسلوب وصورها فى التعبير والتصوير. كما أدركوا أن الفهم الصحيح لمعانى وأحكام التنزيل؛ يقتضى البحث في أساليب العربية، ومعرفة طرقها فى التعبير. يقول الإمام كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكانى «فعلى الطالب لفهم معانى كتاب الله العزيز أن يتتبع ألفاظه والوقوف على مقاصدها فى مظانها ليتوصل بعد ذلك إلى معرفته، فانه لاسبيل إلى

---

(١) المعانى فى ضوء أساليب القرآن ، ص٧.

(٢) لمزيد من التفصيل عن أهمية اللغة بصفة عامة والدرس البلاغى بصفة خاصة، ينظر للمؤلف «أثر الدرس البلاغى فى تعزيز العربية فى التعليم الجامعى » ورقة عمل مقدمة لندوة ظاهرة الضعف اللغوى فى المرحلة الجامعية المنعقدة خلال الفترة ١٥-١٧ رجب ١٤١٥هـ، فى رحاب كلية اللغة العربية بالرياض- جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية.

العـمل به الا بعـد العلم به، وذلك فـرض لازم، والمخل به مـدخـول الفـهم فى علمـه، ومما يلاحظ لمعرفة ذلك رد الكلمـة إلى ضدها، مـثاله قوله تعـالى : «ولاتطع منهم آثمـا أو كـفـورا»(١)، وطريقـه أن ترد النهى فـيـه إلى الأمـر فـتـقـول : مـعنى «أطع هذا أو هذا» : أطع أحـدهمـا، وعلى هذا مـعناه فى النهى «لاتطع واحدا منهما»(٢).

البلاغة العربية :

مـصطلح البـلاغـة فى المعـاجم العـربيـة يعنى الوصـول إلى الشئ، والانتهاء إلى الغاية.

تقول : بلغت المكان إذا وصلت إليـه، وقد تسمى المشارفه بلوغا بحق المقاربة، قال تعالى :«فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف»(٣).

قال الراغب الأصفهانى في المفردت : «البلوغ : والبلاغ: الانتهاء إلى أقـصى المقصـد والمنتـهى، مكانا أو زمـانا أو عـددا من الأمور المقـدرة. وربما يعبر به عن المشارفة عليه. فمن الانتهاء: بلغ أشده، وبلغ أربعين، وقوله عز وجـل «فبلغـن أجلهـن فـلا تعضلوهـن»(٤)، «وماهم ببالغيـة»(٥)،

---

(١) سورة الانسان، الآية ٢٤.

(٢) انظر البرهان الكاشف عن اعـجاز القرآن، تحـقيق د. خديجة الحديثى ود. أحـمد مطلوب، بغـداد، ١٩٧٤، ص ٩٥ وأنظر ص٩٧ من كتابه نفسه حين يتحدث عما يجب الاعتناء به فى فهم فحوى الكلمة والمعانى التى يؤذن بها المسمى أو صيغة الكلمة ومحلها وهيئتها فى الكلام.

(٣) سورة الطلاق، الآية ٦٥، وانظر فى معنى البلاغة من الناحية اللغوية : مقاييس اللغة لابن فارس (مادة بلغ) وكذا فى لسان العرب لابن منظور.

(٤) البقرة، الآية ٢٣٢.

(٥) غافر، الآية ٥٦.

«فلما بلغ معه السعى»[١]، «لعلى أبلغ الأسباب»[٢]، «أيمان علينا بالغة»[٣] أى منتهية فى التوكيد. وقول بليغ أى واصل منتهاه من القوه»[٤].

وبلاغة الكلام تعنى جودته وتميزه، وبلاغة المتكلم قدرته على الإجادة وتميزه على غيره بصنع الكلام البليغ المتميز، ولهذا فسرت البلاغة بالحسن والفصاحة وطلاقة اللسان، والبليغ بفصيح العبارة الذى يبلغ بكلامه مايريد تبليغه فى أحسن صورة من اللفظ. ولهذا فقد جاءت البلاغة «نعتا حميدا خاصا بكلام دون سواه وأناس دون آخرين، وطالعتنا الجوده فى كل ما عرفت به البلاغة من أقوال»[٥] وقديما استحسن الجاحظ قول أحدهم فى البلاغة : «يكفى من حظ البلاغة أن لايؤتى السامع من سوء افهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع»[٦].

والبلاغة عند المبرد تعنى الإحاطة بالمعنى مع حسن الأسلوب، وعند الرمانى تكون فى إيصال المعنى إلى ذهن السامع. فى أحسن صورة من اللفظ وليست البلاغه- عنده- إفهام المعنى لأنه قد يفهم متكلمان، أحدهما بليغ والآخر عيى، وليست بتحقيق اللفظ على المعنى، لأنه قد يحقق

---

(١) الصافات، الآية ١٠٢.

(٢) غافر، الآية ٣٦.

(٣) القلم ٣٩.

(٤) ينظر المفردات، وانظر : معجم ألفاظ القرآن، مادة بلغ.

(٥) انظر البلاغة والفصاحة، دار المناره، جده، ١٤٠٩هـ، ص١٨.

(٦) ينظر البيان والتبيين، بتحقيق عبد السلام هارون، جـ٣، ص ٨٧. وهذا يذكرنا بكلام الاسلوبيين فى المحافظة على سوء فهم النص من قبل القارئ: انظر ص من هذا البحث.

اللفظ على المعنى وهو غث مستكره، ونافر متكلف. وأعلى البلاغة طبقة فى الحسن عند الرمانى:«بلاغة القرآن، وأعلى طبقات البلاغة القرآن خاصه، وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم»(١).

والبلاغة عند الإمام عبد القاهر تعنى وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة، ثم تبرجها فى صورة هى أبهى وأزين، وآنق وأعجب، وأحق بأن تستولى على هوى النفس، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب... ولاجهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته، وتختار له اللفظ الذى هو أخص به، وأكشف عنه وأتم له، وأحرى بأن يكسبه نبلا، ويظهر فيه مزية(٢).

والبلاغة عند السكاكى هى بلوغ المتكلم فى تأدية المعانى حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها، ولها طرفان: أعلى وأسفل، وبينهما مراتب متفاوتة تكاد تفوت الحصر(٣).

كما يقرر أن هذا الفن لاتكفى القواعد فى الوقوف عليه، بل لابد- بعد ذلك - من كثرة المران على الأساليب، وطول معايشتها، ولعله يقصد طول معايشة النصوص الأدبية لمعرفة مسالكها الأسلوبية وقيمها التعبيرية- ولعل هذا مايقصده الأسلوبيون :«بحياة النص بين المبدع

---

(١) ينظر: النكت فى اعجاز القرآن، ضمن ثلاثة رسائل فى اعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله أحمد وزغلول سلام، ص ٦٩.

(٢) دلائل الاعجاز: ٤٣ د. الشيخ شاكر.

(٣) مفتاح العلوم ص ٤١٦.

والمتلقى» يقول السكاكى:«إن هذا الفن لاتلين عريكته ولاتنقاد مرونته بمجرد استشعراء صور منه، وتتبع مظان أخوات لها، وإتعاب النفس بتكرارها، واستيداع الخاطر حفظها وتحصيلها، بل لابد من ممارسات لها كثيرة، ومراجعات فيها طويلة، مع فضل قوة من سلامة فطرة واستقامة طبيعة، وشدة ذكاء، وصفاء قريحة.. واعلم أنك إذا حذفت هذا الفن لصدق همتك، واستفراغ جهدك فيه أمكنك التسلق به إلى العثور على السبب فى إنزال رب العزة قرآنه المجيد على هذه المناهج إن شاء الله تعالى[١].

وانتهى البحث البلاغى إلى أن البلاغة تعنى مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال، والبليغ من الكلام عند البلاغيين «ماجاء مطابقا لمقتضى الحال مع فصاحته ومقتضى الحال مختلف، ومقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكى يباين خطاب الغبى، وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام. إلى غير ذلك، وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب وانحطاطه بعدم مطابقته له[٢]، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال هو ما سماه الشيخ عبد القاهر بالنظم وأدار حوله دراساته المتميزة فى دلائل الإعجاز».

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٤.

(٢) بغية الايضاح : ٢٩/١، ٣٠.

النظم عند عبد القاهر:

رأى الشيخ عبد القاهر أن الأدباء والنقاد ينقسمون حول مقياس الحكم على الأعمال الأدبية فطائفة يرجعون جودتها إلى الألفاظ وطائفة يرجعونها إلى المعانى وقد رفض عبد القاهر آراء الفريقين وبين أن الحكم على الأعمال الأدبية يقوم على النظم، فهو مرجع المزية ومناط الفضل.

والنظم عند عبد القاهر هو : توخى معانى النحو وأحكامه فيما بين الكلم، وترتيبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس[١]. فهو يعنى به صياغة المعانى النفسية، والأغراض الذهنية مرتبة فى كلام روعيت فيه قواعد النحو وأحكامه، وهو نظير النسج والتأليف والتنسيق، وبذل الإمام فى شرح النظم وأحكامه جهدا كبيرا أبرزه فى كتابه «دلائل الإعجاز».

وقبل عبد القاهر نرى العلماء الأوائل يتحدثون فى المسائل البلاغية المختصة بصور التراكيب وأنماط الأساليب، فهذا سيبويه (ت.١٨٠هـ) يتحدث عن بعض أحوال المسند إليه والمسند، من تقديم وتأخير، وذكر وحذف، وتعريف وتنكير ثم من الاستفهام وخروجه من معناه[٢]. كما حفل كتاب الجاحظ «البيان والتبيين» بصور متعدده من المباحث البلاغية، فقد تحدث عن مقتضى الحال ووجوب مراعاته، وعن صفات الألفاظ، وعن المجاز والاستعارة، والإيجاز والإطناب والتشبيه، والسجع والازدواج والكناية

---

(١) ينظر دلائل الاعجاز تعليق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجى، ط٢ القاهرة ١٤١٠هـ-١٩٨٩م ص ٨٧، ٨١، وانظر في تفصيل مزايا النظم بحسب المعانى والاعراض الصفحات ٨٧-١٠٥، ٢٤٩-٢٩٢ وكذا القول فى التقديم والتأخير ص١٠٦-١١٨، والقول فى الفصل والوصول والمربط بين الجمل ص ٢٤٠-٢٤٨.

(٢) ينظر الكتاب، جـ١، ص ١٠٨، ١٠٩، ١٦٩.

والإيضاح كأنماط للأسلوب ومسالك للتعبير (١). كما يقرر قتيبة أن «للعرب المجازات فى الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير، والحذف والتكرار، والإخفاء والإظهار، والتعريض والإفصاح، والكناية والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجمع، والجمع خطاب الواحد، والواحد والجمع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، وبكل هذه المذاهب نزل القرآن» (٢).

ورغم جهود العلماء قبل عبد القاهر فى المسائل البلاغية المختصة بصور التراكيب، إلا أن لعبد القاهر الفضل فى تفصيل الكلام، فى مسألة العلاقات بين الجمل، ومايترتب على ذلك من طرائق النظم والتأليف، فعبد القاهر يشير إلى أنه من الضرورى فى معرفة الفصاحة، أن نقف على الخصائص التى تعرض فى نظم الكلام، وأن الألفاظ لاتتفاضل ولا يكون لأحدها الميزة على الأخرى، من حيث هى ألفاظ مجردة، وإنما تثبت لها الفضيلة والمزية، من ملاءمة معنى المفرده لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك، أى أن المزية والفضل للكلام إنما هو فى نظمه باعتبار ملاءمة معنى اللفظة لمعنى اللفظة التى تليها مرتبا على المعانى المرتبة فى النفس (٣)

---

(١) ينظر البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، جـ١، ص ١٤٤، ١٦١، ١٦٣، ١٦٥، ١٩٦، وجـ٣، ص ١١٦، ٣٠١، وانظر الحيوان جـ٥، ص ٣٣، ٣٨. وغيرها.

(٢) تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، ص ١٥ ومابعدها. وانظر : اعجاز القرآن والبلاغه النبويه لمصطفى صادق الرافعى ص١٥.

(٣) ينظر دلائل الاعجاز، طبعة خفاجى، ص١٧٠، وانظر أسرار البلاغة له، شرح محمد رشيد رضا، طبعة ١٩٥٩م، ص٢.

وهذا ما يتطابق تماما مع وجهات النظر فى الدراسات الأسلوبية التى تهتم بالتحليل اللسانى بما هو دراسة للغة بصورة عامة- كما سوف نرى. فعبد القاهر فى كتاب :«دلائل الإعجاز» الذى ألفه بمثابة مقدمات فى دراسة الاعجاز القرآنى، لايفتأ بذكر مسألة النظم والتركيب، والصيغة والأداء، والأسلوب كأساس لفهم فضيلة الكلام وبلاغته، ولفهم إعجاز كتاب الله كذلك، ويؤكد منذ البداية أن تعليق الكلم يتم عن طرق ثلاث : تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما، ويشرح وجوه التعلق شرحا وافيا (١).

وينظر فى الجمل التى ترد، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع (الواو) من موضع (الفاء) وموضع (الفاء) فى موضع (ثم)، وموضع (أو) من موضع (أم) وموضع (لكن) فى موضع (بل).

ويتصرف فى التعريف، والتنكير، والتقديم، والتأخير فى الكلام كله، وفى الحذف والتكرار، والإضمار، والإظهار، فيضع كلا من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة، وعلى ماينبغى له.

هذا هو السبيل، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا، وخطوءه ان كان خطأ، إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معانى النحو، قد أصيب به موضعه ووضع فى حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه، واستعمل فى غير ماينبغى له.

فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه الا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد، وتلك المزية وذلك الفضل

---

(١) ينظر دلائل الاعجاز: تعليق محمود محمد شاكر، ص ٤-٨.

إلى معانى النحو وأحكامه، ووجدته يدخل فى أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه(١).

والنظم يتكون من كلمات رتبت على حسب ترتيبها فى النفس مع التزام قواعد النحو ومعانيه، ومن أجل ذلك تكون كلماته مترابطة، ومتعلقة بعضها ببعض، وينبنى بعضها على بعض، وقد فصل ذلك الإمام عبد القاهر بقوله : واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لايعترضه الشك أن لانظم فى الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك، هذا مالايجهله عاقل، ولايخفى على أحد من الناس(٢).

ويوضح الإمام أن وضع الكلم بهذه الصفة لايقوم إلا على أحكام النحو، ولايتحقق إلا بتطبيقها، فيقول مبينا معنى البناء والتعليق وطريق ذلك: أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلا لفعل، أو مفعولا، أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبرا عن الآخر، أو تتبع الاسم اسما على أن يكون الثانى صفة للأول، أو تأكيدا له، أو بدلا منه، أو تجئ باسم بعد تمام كلامك، على أن يكون الثانى صفة أو حالا أو تمييزا، أو تتوخى فى كلام هو لاثبات معنى أن يصير نفيا أو استفهاما أو تمنيا، فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك، أو تريد فى فعلين أن تجعل أحدهما شرطا فى الآخر فتجئ بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى، أو بعد اسم من الأسماء التى ضمنت معنى ذلك الحرف، وعلى هذا القياس(٣) وفرع الامام عبد القاهر من نظرية النظم،

---

(١) دلائل الاعجاز: ٨١، ٨٢.

(٢) السابق : ٥٥.

(٣) دلائل الاعجاز : ٥٥.

موضوعات شتى، كلها تهدف إلى بيان خصائص التراكيب، ودراسة الأساليب، فتحدث عن التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والفصل والوصل، وأساليب القصر، وربط البيان والبديع بنظرية النظم، من خلال حديثه عن الاستعارة والكناية، والمجاز العقلى وبعض المحسنات البديعية.

ويشير إلى أن الابداع اللغوى والجمال التصويرى المبنى على الاستعارة والتشبيه يعود فى النهاية إلى مسألة النظم، لأن مزية النظم تفوق كل المزايا الجمالية، لأننا قد نستطيع استبدال صورة بصورة أخرى وتعبير بتعبير آخر عن المعنى المراد، غير أنه ليس باستطاعتنا أن نغير من نظم الكلام وأسلوبه وفق المعنى الذى نريد والألفاظ التى نختار، إذا ماورد فى صورة خاصة، لأن فى تغيير اللفظ حتى فى احتفاظ الكلام بمعناه يقلب بلاغة العبارة رأسا على عقب ويخرجها فى إطار يجعلنا لانحس معه نفس الإحساس الأول قبل تغيير النظم كما يقول عبد القاهر، وبهذا التخريج نراه يقف أمام بيت لابن المعتز:

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

فنراه يقرر أن الجمال التصويرى هنا فى الاستعارة التى فى «سالت» وفى تشبيه الوجوه بالدنانير» إنما تم الحسن وانتهى إلى حيث انتهى، بما توخى فى وضع الكلام من التقديم والتأخير وتجدها (الاستعارة) قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها»[1] ثم يعقب قائلا :«وإن شككت فاعمدا إلى الجارين والظرف» فأزل كلا منهما عن مكانه الذى وضعه الشاعر فقال :«سالت شعاب الحى بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره» ثم أنظر

---

(١) دلائل الاعجاز، ص ٩٩.

كيف يكون الحال، وكيف يذهب الحسن والحلاوة»[١] وبهذا المفهوم نراه يقف أمام كثير من آى الذكر الحكيم مثل «واشتعل الرأس شيبا» و«فجرنا الأرض عيونا» و«ولكم في القصاص حياة» و«وقيل يا أرض ابلعى ماءك».. كما يقف أمام معانى حروف العطف وأثرها فى وصل الكلام وفصله، وأدوات الاستفهام، ويقرر أن للاستفهام معنى يفهم من مفهوم الجملة، لا من منطوقها، فإذا قيل مثلا : «أأنا أمنع الناس حقوقهم؟ كان معناه :«أنا أكرم من ذلك» ، وهو أمر لم يفهم من ظاهر التركيب ودلالة المنطوق. كما نراه يقف عند مباحث عدة من مباحث علم المعانى- العلم الذى تدور معظم مباحث علم الاسلوب حوله كما سيأتى تفصيله- فيتحدث عن بلاغة الخبر والانشاء، فأحيانا لايكون الخبر لمجرد الاخبار بقدر ما يكون لشئ آخر ولايكون النفى لمجرد النفى بقدر ما يكون بغرض سواه، فإذا قلت لمدعى الاحسان مثلا : أنت لاتحسن هذا!»، كان قولك هذا أبلغ من قولك مثلا :«لاتحسن هذا» لأن فى الأولى إشاره إلى صلفه وادعائه[٢]. وكذا أسلوب الاستفهام فى قولك :«أأنا أهضم الناس حقوقهم؟» تتغير فيه دلالة الجملة إلى :«أنا أكبر من ذلك»، وأسلوب الكناية فى قولهم : فلان سليم دواعى الصدر، ضعيف العصا طاهر الإزار، إنما يعنى تمام المروءة، والعطف والشفقة والرحمة، والاجتناب الريب، والبعد عن الحقد والحسد. كما أن المرء لايحنث إذا حلف وقال :«والله لا آكل طعام زيد» إلا بأكل الجميع، ويحنث بأكل اليسير منه إن قال :«والله لا آكل من طعام زيد»، وكذلك لو كان عنده عبد فقال :«هو لزيد» بفتح اللام والرفع لم يلزمه شئ

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٠٠، ١٠٥.

(٢) ينظر تفصيل ذلك فى دلائل الاعجاز ص ١٠٦، ١٤١.

ولو قال :«لزيد بكسر اللام والخفض لكان مقرا له به لان اللام إذا فتحها كانت تأكيدا، وكان مخبرا أن العبد اسمه زيد، وإذا كسر اللام كانت لام الملك الخافضة وكان مخبرا أنه ملكه[١].

من هذا كله ومن كل ما تقدم يتبين لنا أن الصور البيانية والأشكال البلاغية والمحسنات البديعية إنما هى أدوات لغويه وأنماط أسلوبية يستطيع المؤلف الناجح استخدامها وتوظيفها توظيفا يتحقق به الإبداع والجمال، والقوة والقيم التعبيرية فى النص الأدبى، وأن الفضيلة فى صياغة الأدب وأساليبه عند عبد القاهر بخاصة وعند البلاغيين العرب بعامة، إنما تكون فى الإبداع الذى يميز الأدب عن غيره من الفنون، كما أن التمايز فى الأسلوب الأدبى إنما هو تمايز فى المقدرة على استعمال الطاقات والامكانات الأسلوبية، الكامنة فى اللغة، باعتبار ملاءمة اللفظة لمعنى اللفظة التى تليها، وباعتبار المقام ومقتضى الحال، وإدراك الفروق الدقيقة بين الحالات المختلفة للمخاطب، وصياغة الكلام على الأنماط والمسالك والمقتضيات المناسبة للخطاب.

من تحليلات البلاغيين :

وسنسوق هناك نماذج من تحليلات البلاغيين لبعض النصوص لنثبت من خلالها تناول البلاغيين لكافة مكونات النص وعناصره بدءا من الحرف والكلمة والجملة والجمل، مع عدم إهمالهم للنواحى الصوتية، وربطهم بين علوم اللغة والبلاغة فى نسق دقيق. قال تعالى :«وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً القوم الظالمين»[١].

---

(١) سورة هود : ٤٤.

تناول هذه الآية بالتحليل البلاغى الدقيق كثير من علماء البلاغة على مر العصور وسنعرض ماذكره ثلاثة منهم يمثلون الاتجاهات البلاغية المشهورة فى تاريخ البحث البلاغى.

البلاغيين الذين فصلوا القول فيها، فقال : وهل تشك إذا فكرت فى قوله تعالى «وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين» فتجلى لك منها الإعجاز، وبهرك الذى ترى وتسمع، انك لم تجد ماوجدت من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف، إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها، وأن الفضل تناتج ما بينها، وحصل من مجموعها؟.

ان شككت: فتأمل: هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت، لأدت من الفصاحة ماتؤدية وهى فى مكانها من الآية، قل: «ابلعى» واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ماقبلها ومابعدها. وكذلك فاعتبر سائر مايليها.

وكيف بالشك فى ذلك، ومعلوم أن مبدأ العظمة فى أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم فى أن كان النداء «بيا» دون «أى» نحو «يأيتها الأرض» ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال : ابلعى الماء، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل «وغيض الماء» فجاء الفعل على صبغة «فعل» الدالة على أنه لم يغض الا بأمر آمر وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى «وقضى الأمر»، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو «استوت على الجودى»، ثم إضمار «السفينة» قبل الذكر، كما هو شرط الفخامة والدلالة

على عظم الشأن، ثم مقابلة «قيل» فى الخاتمة «بقيل» فى الفاتحة؟ أفترى لشئ من هذه الخصائص التى تملؤك بالإعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها، تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى فى النطق؟ أم كل ذلك لما بين معانى الألفاظ من الاتساق العجيب؟.

ثم يقرر الامام النتيجة التى يهدف إليها فيقول : فقد اتضح إذن اتضاحا لايدع للشك مجالا، أن الألفاظ لاتتفاضل من حيث هى كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلافها فى ملائمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها. وما أشبه ذلك، ممالاتعلق له بصريح اللفظ[1].

السكاكى :

وتحدث السكاكى عن هذه الآية حديثا مطولا بدأه بقوله إن النظر فيها من أربع جهات: من جهة علم البيان، ومن جهة علم المعانى، وهما مرجعا البلاغة، ومن جهة الفصاحة المعنوية، ومن جهة الفصاحة اللفظية، وفصل كل جهة من هذه الجهات.

فأما النظر فيها من جهة علم البيان فقال :... قال جل وعلا «قيل» على سبيل المجاز عن الارادة الواقع بسببها قول القائل، وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماد، وهو يا أرض ويا سماء ثم خاطب الأرض والسماء على سبيل الاستعارة للشبه المذكور، ثم استعار لغؤور الماء فى الأرض.. ثم أمر على سبيل الاستعارة، وخاطب فى الأمر ترشيحا لاستعارة النداء، ثم قال ماءك باضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز تشبيها لاتصال الماء بالأرض

---

(١) دلائل الاعجاز: ٤٥-٤٦.

باتصال الملك بالملك واختار ضمير الخطاب لاجل الترشيح، ثم اختار لاحتباس المطر الاقلاع الذى هو ترك الفاعل الفعل لما شبه بينهما فى عدم ما كان، ثم أمر على سبيل الاستعارة وخاطب فى الأمر اقلعى كما تقدم فى ابلعى، ثم قال «وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا» فلم يصرح بالفاعل كما لم يصرح به قبل ذلك فى صدر الآية، سلوكا فى كل واحد من ذلك لسبيل الكناية أن تلك الأمور العظام لاتتأتى إلا من ذى قدرة لايغالب... ثم ختم الكلام بالتعريض تنبيها لسالكى مسلكهم فى تكذيب الرسل ظلما لأنفسهم لاغير ختم اظهار لمكان السخط ولجهة استحقاقهم إياه، وأن قيمة الطوفان وتلك لصورة الهائلة ماكانت إلا لظلمهم.

وأما النظر فيها من جهة علم المعانى فهو النظر فى فائدة كل كلمة منها، وجهة كل تقديم وتأخير فيها بين جملها، فذلك أنه اختير «يا» دون سائر أخواتها لكونها أكثر فى الاستعمال، ودالة على بعد المنادى الذى يستدعيه مقام إظهار العظمة.. واختير لفظ الأرض دون سائر أسمائها لكونه أخف وأدور، واختير لفظ السماء لمثل ذلك مع قصد المطابقة، واختير لفظ ابلعى على ابتلعى لكونه أخصر ولمجئ التجانس بينه وبين اقلعى، وقيل ماءك بالإفراد دون الجمع لما كان فى الجمع من صورة الاستكثار المتأبى عنها مقام إظهار الكبرياء والجبروت... وإنما لم يقل ابلعى بدون المفعول حتى لايقصد التعميم من ابتلاع الجبال والتلال وغيرها... ولما ظهر المراد اختصر الكلام مع اقلعى احترازا عن الحشو... ثم قيل بعدا للقوم دون أن يقال: ليبعد القوم طلبا للتأكيد والاختصار.. ثم اطلق الظلم ليتناول كل نوع منه لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم فى تكذيب الرسل، وأما ترتيب الجمل فقد قدم النداء على الأمر... جريا على مقتضى اللازم من تقديم التنبيه لتمكين الأمر.. وقدم أمر الأرض على أمر السماء لابتداء

الطرفان منها.. ثم اتبع ذلك بقوله وغيض الماء لاتصاله بقصة الماء وأخذه بحجزتها..ثم اتبعه ماهو المقصود من القصة وهو قوله «وقضى الأمر» أى أنجز الموعود من أهلاك الكفرة وانجاء نوح ومن معه فى السفينة، ثم أتبعه حديث السفينة «واستوى على الجودى»، ثم ختمت القصة بما ختمت.

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية، فهى كما ترى نظم للمعانى لطيف، وتأدية لها ملخصة مبينة لاتعقيد فيها ولا التواء.. تسابق ألفاظها معانيها، ومعانيها تسابق ألفاظها.

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية، فألفاظها كما ترى عربية مستعملة، جارية على قوانين اللغة، سليمة عن التنافر، بعيدة عن البشاعة، عذبة سلسلة، كل منها كالماء فى السلاسة، وكالعسل فى الحلاوة، وكالنسيم فى الرقة(١).

ابن ابى الاصبع :

وعرض ابن أبى الاصبع لهذه الآية فى باب «الإبداع» وهذا اللون من الألوان البديعية التى أضافها ابن أبى الاصبع وسلمها العلماء له، وقد عرفه بقوله : أن تكون كل لفظة من ألفاظ الكلام على انفرادها متضمنه بديعا أو بديعين بحسب قوة الكلام، ومايعطيه معناه، بحيث يأتى فى البيت الواحد، والجملة الواحدة عدة ضروب من البديع، ولاتخلو لفظة منه من بديع.

ثم مثل له بهذه الآية الكريمة واستغرق فى تحليلها وبيان مافى كلماتها من ضروب البديع، فقال : وما رأيت ولارويت فى الكلام المنثور

---

(١) مفتاح العلوم: ١٩٧-١٩٩.

والشعر الموزون كآية من كتاب الله تعالى، استخرجت منها أحدا وعشرين ضربا من البديع، وعددها سبع عشرة لفظة، وهى قوله تعالى :(وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين) (١) وتفصيل ما جاء فيها من البديع.

المناسبة التامة فى ابلعى وأقلعى، والمطابقة اللفظية فى ذكر السماء والأرض والاستعارة فى قوله «ابلعى واقلعى» للأرض والسماء، والمجاز فى قوله «ياسماء» فإن الحقيقة: ويامطر السماء اقلعى، والاشارة فى قوله «وغيض الماء» فإنه سبحانه وتعالى عبر بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة، لأن الماء لايغيض حتى يقلع مطر السماء، وتبلع الأرض مايخرج من عيون الماء فينقص الحاصل على وجه الأرض من الماء، والارداف فى قوله «واستوت على الجودى» فإنه عبر عن استقرار السفينة على هذا المكان وجلوسها جلوسا متمكنا لازيغ فيه ولاميل، ولطمأنينة أهل السفينة بلفظ قريب من لفظ الحقيقة، والتمثيل فى قوله «وقضى الأمر» فإنه عبر بذلك عن هلاك الهالكين، ونجاة الناجين، بلفظ فيه بعدما من لفظ الحقيقة بالنسبة إلى لفظ الارداف والتعليل لأن غيض الماء علة الاستواء، وصحة التقسيم حين استوعب سبحانه أقسام أحوال الماء حالة نقصه، إذ ليس إلا احتباس ماء السماء، واحتقان الماء الذى ينبع من الأرض، وغيض الماء الحاصل على ظهر الأرض والاحتراس فى قوله «وقيل بعدا للقوم الظالمين» محترسا من توهم من يتوهم أن الهلاك ربما عم من لايستحق الهلاك، فجاء سبحانه بالدعاء على الهالكين ليعلم أنهم مستحقوا الهلاك، فإن عد له منع أن

---

(١) بديع القرآن: ٣٤٠-٣٤٣.

يدعو على غير مستحق للدعاء عليه، والانفصال فإن لقائل أن يقول : ان لفظة القوم مستغنى عنها، فانه لو قيل: وقيل بعدا للظالمين، لتم الكلام، والانفصال عن ذلك أن يقال : لما سبق فى صدر الكلام قبل الآية قوله تعالى: (وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) وقال سبحانه قبل ذلك مخاطبا لنوح عليه السلام : (ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون) فاقتضت البلاغة أن يؤتى بلفظة القوم التى آلة التعريف فيها للعهد، ليتبين أنهم القوم الذين تقدم ذكرهم فى قوله تعالى :(وكلما مر عليه ملأ من قومه) ووصفه بالظلم، وأخبر بسابق علمه أنهم هالكون بقوله : (ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون) فحصل الانفصال عن الاشكال، وعلم أن لفظة القوم ليست فضلة فى الكلام، والمساواة لأن لفظ الآية لايزيد على معناه ولاينقص عنه، وحسن النسق فى عطف القضايا بعضها على بعض بأحسن ترتيب حسبما، وقعت أولا فأولا، فإنه سبحانه أمر الأرض بالابتلاع ثم عطف على ذلك أمر السماء بالإقلاع، ثم عطف غيض الماء على ذلك، ثم عطف على ذلك قضاء الأمر بهلاك الهالكين ونجاة الناجين، ثم عطف على ذلك استواء السفينة على الجودى، ثم عطف على ذلك الدعاء على الهالكين، فجاء عطف هذه الجمل على ترتيب وقوعها فى الوجود، وائتلاف اللفظ مع المعنى لكون كل لفظة لايصلح فى موضوعها غيرها، والإيجاز لأنه سبحانه اقتص القصة بلفظها مستوعبة، بحيث لم يخل منها بشئ فى أخصر عبارة بألفاظ غير مطولة، والتسهيم، لأن من أول الآية إلى قوله تعالى «اقلعى» يقتضى آخرها، والتهذيب، لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن، كل لفظة سهلة مخارج الحروف، عليها رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة، والتركيب سليم من التعقيد وأسبابه،

وحسن البيان من جهة أن السامع لايتوقف فى فهم معنى الكلام، ولايشكل عليه شئ منه، والتمكين لأن الفاصلة مستقرة فى قرارها، مطمئنة فى مكانها غير قاتمة ولامستدعاة، والانسجام وهو تحدر الكلام بسهولة وعذوبة سبك مع جزالة لفظ، كما ينسجم الماء القليل من الهواء، وما فى مجموع ألفاظ الآية مع الابداع، وهو الذى سمى به هذا الباب، إذ فى كل لفظة بديع وبديعان، لانها كما تقدم سبع عشرة لفظة تضمنت أحدا وعشرين ضربا من البلاغة سوى مايتعدد من ضروبها، فإن الاستعارة وقعت فيها فى موضعين: وهما استعارة الابتلاع والاقلاع.

فانظر - رحمك الله- إلى عظمة هذا الكلام، وما انطوى عليه نظمه، وما تضمنه لفظه، لتقدره قدره، وهذا ماظهر لى منه على ضعف نظرى، وقلة مادتى من العلوم، وكلال ذهنى[1].

وبعد هذا العرض للآية عند الامام عبد القاهر وأبى يعقوب السكاكى وابن أبى الاصبع نقول : إن كل واحد من أعلام البيان الثلاثة قد تناول الآية الكريمة بما يتلاءم مع طريقته ومذهبه فى التأليف البلاغى. فابن أبى الاصبع تناولها من ناحية الفنون البديعية التى يبحث عنها ويجرى ورائها ويحاول أن يستشفها فى شواهده القرآنية، فكشف فيها عن واحد وعشرين فنا من فنون البلاغة وبين موقع كل فن فيها، وبدت على طريقته المسحة الأدبية.

والإمام عبد القاهر تناولها بطريقته الفذة التى سار عليها فى دلائل الإعجاز فبين دقة النظم فيها وتلاؤم كلماتها، وتناسب ألفاظها وتآخيها، وبين أن المزية ليست في مفرداتها كل مفرد على حدة، وإنما فى نظمها بهذه

---

(١) بديع القرآن: ٣٤٠-٣٤٣.

الطريقـة، وتأليـفـهـا على هذا النحو المعـجـز، ودلل بذلك على أن المزية لاتكون فى الألفاظ المجردة، وإنما فى تأليف الألفاظ على نمط بديع، وأسلوب قائم على التلاؤم والتناسب.

والسكاكى تناولها بطريقـة تتسم بالتـحديد والتـقـعـيـد، فـبين أولا النواحى التى سينظر إليـهـا، ثم فصل كل ناحيـة بدقـة واستـقـصـاء، وعنى بدقائق البيان والمعانى دون استفاضة فى الأسلوب الادبى.

ونلمح فى تحليله اقـبـاسـا مما ذكره الامـام عـبـد القـاهر، قـد صـيـغت بطريقة السكاكى العقلية الدقيقة، ولا نرى أثرا لاهتمامه بالفنون البديعية، ولا بطريقة البديعيين، وذلك لأنه يعتبر أن البلاغة قائمة على علمى البيان والمعانى.

وتدلنا هذه التحليلات الثلاثة على تشعب البلاغة العربية إلى ثلاث مـدارس هى مـدرسـة الإمـام عـبـد القـاهر، ومـدرسـة السكاكى، ومـدرسـة البـديعيين، وكل مدرسـة لهـا سـمـاتها ومميزاتهـا، وتفـصيل هذا يحتـاج إلى دراسة خاصة به.

وعلى الرغم من اخـتـلاف مناهج المدارس البـلاغـيـة الثـلاثة إلا أن جميـعـهـا عنيت بتحليل الآية ممثلة فى مفـرداتهـا وجـملها وطريقة نظمهـا وحسن نسـقـهـا مما يعـد فى قمـة الدراسـات الأسلوبية ونلمح العناية باللغـة وأسرار التـعبير بهـا فى تحليلات المفسرين وعلى رأسـهم الزمخـشرى الذى سنذكر بعض جهوده.

الزمخشرى:

يمثل تفسير الزمخشرى المسمى بالكشاف منهجا دقيقاً فى التحليل البلاغى المعتمد على أحكام اللغة وقواعد النحو والإحاطة بجميع عناصر الأسلوب.

والبحوث البلاغية فى كشاف الزمخشرى تتسع لتشمل : المفردات والجملة، والجمل وصور البيان، وفنون البديع.

ففى ميدان المفردات: نرى تأملاته فى الكلمة وملاءمتها للسياق من حيث مادتها وهيئتها، وما تحمله الصيغ المختلفة من معان بلاغية، وأدوات الربط وماتضيفه من لطائف وأسرار.

وتجده يتأمل التعريف باللام، وبالاسم الموصول ، وباسم الإشارة ، وبالإضافة كما ينظر فى أسرار التنكير ومايوحى به من معان متنوعة تبعاً للاسلوب.

وفى ميدان الجملة: نلتقى بنظراته الدقيقة فى بحوث: التقديم ، والاستفهام والأمر ، والنهى ، والنداء، والقسم ، والتعجب ، والنفى ، والقصر ، والتوابع، والحذف ، والذكر، والتوكيد وعناصره.

وفى ميدان الجمل: تقابلنا بحوثه فى: الفصل، والوصل، والفواصل القرآنية، والالتفات ، والتكرار، والاعتراض ، والاختصار ، وترتيب الجمل والآيات.

وفى صور البيان يتحدث عن التشبيه، والتمثيل، وأداة التشبيه، والاستعارة ، والترشيح، والتجريد، والعكس فى الكلام، والتخييل، والمجاز المرسل ، والمجاز الحكمى ، والكناية والتعريض.

وفى فنون البديع: يعرض للمشاكلة، والاستطراد ، والتفصيل، والكلام الموجه والتورية، والمقابلة، والطباق، والازدواج، والتجانس، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، والإدماج ، واللف والنشر.

كل هذه المباحث البلاغية وتفصيلاتها نلتقى بها فى «الكشاف» واضحة المعالم ، بارزة القسمات، فى ثوبها التطبيقى البديع[١].

نماذج من الكشاف:

- فى تفسير قوله تعالى : (إياك نعبد وإياك نستعين) [٢] يقول.. وتقديم المفعول «إياك» لقصد الاختصاص، كقوله تعالى: (قل أفغير الله تأمرونى أعبد) [٣] (قل أغير الله أبغى ربا) [٤] والمعنى : نخصك بالعبادة، ونخصك بطلب المعونة.. فإن قلت: لم عدل عن لفظ الغيبة الى لفظ الخطاب؟ قلت: هذا يسمى «الالتفات» فى علم البيان، قد يكون من الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى:(حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم) [٥] وقوله تعالى: (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه) [٦] وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات فى ثلاثة أبيات:

تطاول ليلك بالاثمد ونام الخلى ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة كليلة ذى العائر الأرمد
وذلك من نبا جاءنى وخبرته عن بنى الأسود

---

(١) انظر تفصيل المباحث البلاغية فى الكشاف فى كتاب : البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى د. محمد أبو موسى.

(٢) الفاتحة : ٥.

(٣) الزمر : ٦٤ .

(٤) الأنعام : ١٦٤.

(٥) يونس : ٢٢ .

(٦) فاطر : ٩.

وذلك على عادة افتنانهم فى الكلام وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وايقاظا للإصغاء اليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعة بفوائد، ومما اختص به هذا الموضع: أنه لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء ، وغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل: إياك يامن هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة، لانعبد غيرك ولانستعينه، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذى لاتحق العبادة إلا به ، فان قلت: لم قرنت الاستعانة بالعبادة؟ قلت: ليجمع بين مايتقرب به العباد الى ربهم، وبين مايطلبوه ويحتاجون إليه من جهته ، فإن قلت: فلم قدمت العبادة على الاستعانة؟ قلت: لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الاجابة إليها. فإن قلت: لم أطلقت الاستعانة؟ قلت: ليتناول كل مستعان فيه، والأحسن أن تراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادة ، ويكون قوله «اهدنا» بيانا للمطلوب من المعونة، كأنه قيل: كيف أعينكم؟ فقالوا: أهدنا الصراط المستقيم وإنما كان أحسن ، لتلاؤم الكلام وأخذ بعضه بحجزة بعض[1].

وقد تناول الزمخشرى فى هذا التحليل خمس نقاط بلاغية ..

الأولى: التقديم : وهو يتحدث عن نوعين من التقديم.

١- تقديم ماحقه التأخير ، والمتمثل فى التقديم المفعول «إياك» على الفعل فى الجملتين ، وسر ذلك التخصيص.

---

(١) الكشاف : ١/٦١ - ٦٦.

٢- تقديم شئ على شئ لاترتيب بينهما، والمتمثل فى تقديم العبادة على الاستعانة، وقد بين سر ذلك بأن العبادة وسيلة والاستعانة حاجة وينبغى تقديم الوسيلة علي الحاجة لتترتب عليها الإجابة.

الثانية : الالتفات: وقد أشار إلى بعض صوره ومثل لها ، فهو فى آية الفاتحة من الغيبة إلى الخطاب، وفى الآية الثانية من الخطاب إلى الغيبة، وفى الآية الثالثة من الغيبة إلى التكلم.

وأشار الى التفاتات أمرئ القيس فى أبياته المشهورة ، وجعل فيها ثلاثة التفاتات الأول فى البيت الأول وهو من التكلم إلى الخطاب فى «ليلك» والثانى فى قوله وبات.. ففيه التفات من الخطاب فى البيت الأول إلى الغيبة فى البيت الثانى ، والثالث فى قوله: جاءنى ، ففيه التفات من الغيبة فى البيت الثانى إلى التكلم فى البيت الثالث.

وجمهور البلاغيين يرون أن ما فى البيت الأول لايعد التفاتا لأنهم يقولون فى تعريف الالتفات: هو التعبير عن معنى بطريق من طرق الكلام بعد التعبير عنه بطريق آخر منها. فشرط الالتفات عندهم أن يسبق التعبير بتعبير آخر على خلافه، وقد سار السكاكى على مذهب الزمخشرى فى الالتفات(١).

وبين الزمخشرى سر الالتفات ، فذكر سراً عاماً فى كل التفات، وسرا خاصا بالالتفات فى الآية الكريمة التى يفسرها.

فالسر العام للالتفات هو : تنبيه السامع وإيقاظه للإصغاء ، وتجديد نشاطه بنقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب.

---

(١) الايضاح ٢/٨٦ . ومفتاح العلوم : ٩٦.

والسر الخاص بآية الفاتحة هو : أن ماذكر من استحقاق الله للحمد، وما أجرى عليه من الصفات العظيمة ، أدى إلى تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء ، وغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل: إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة ، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذى لاتحق العبادة إلا به.

الثالثة : عطف شئ على شئ ، والمتمثل فى عطف الاستعانة على العبادة، وقد بين سر هذا بأنه للجمع بين مايقترب به العباد إلى ربهم، وبين مايطلبونه ويحتاجون إليه من جهته.

الرابعة : الاطلاق عن القيد ، والمتمثل فى إطلاق الاستعانة عن التقييد: بالجار والمجرور ، وقد بين سر ذلك بأنه لإفادة العموم، ليتناول كل مستعان فيه.

الخامسة: الإشارة إلى تلاؤم الكلام وذلك حين اختار قيداً للاستعانة فقال: والأحسن أن تراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادة، ويكون قوله «اهدنا» بيانا للمطلوب من المعونة... وإنما كان هذا أحسن ، للتلاؤم وأخذ بعضه بحجز بعض.

وبهذا جلى لنا الزمخشرى أسرار الآية التعبيرية ، وكشف لنا فى تطبيقه لطائف جليلة تدل على أهمية تطبيقاته البلاغية على القرآن الكريم.

- ويقول الزمخشرى فى تفسيره قوله تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) [1] معنى اشتـــراء

---

(١) البقرة : ١٦.

الضلالة بالهدى: اختيارها عليه واستبدالها به على سبيل الاستعارة، لأن الاشتراء فيه إعطاء بدل، وأخذ آخر .. فإن قلت: كيف اشتروا الضلالة بالهدى وماكانوا على هدى؟ قلت: جعلوا لتمكنهم منه، واعراضه لهم كأنه فى أيديهم، فاذا تركوه إلى الضلالة فقد عطلوه واستبدلوها به، ولان الدين القيم هو فطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها، فكل من ضل فهو مستبدل خلال الفطرة.

والضلالة : الجور عن القصد وفقد الاهتداء ، يقال: ضل منزلته.. فاستعير للذهاب عن الصواب فى الدين، ... فان قلت: كيف أسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها؟ قلت: هو من الإسناد المجازى، وهو أن يسند الفعل إلى شئ يتلبس بالذى هو فى الحقيقة له، كما تلبست التجارة بالمشترين، فإن قلت: هل يصح ربح عبدك وخسرت جاريتك على الإسناد المجازى؟ قلت: نعم إذا دلت الحال، وكذلك الشرط فى صحة رأيت أسدا وأنت تريد المقدام إن لم تقم حال دالة لم يصح، فإن قلت: هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازا فى معنى الاستبدال ، فما معنى ذكر الربح والتجارة، كأن ثم مبايعة على الحقيقة؟ قلت: هذا من الصنعة البديعة التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ، ثم تقضى بأشكال لها وأخوات إذا تلاحقن لم تر كلاما أحسن منه ديباجة، وأكثر ماء ورونقا وهو المجاز المرشح.. ونحوه قول الشاعر:

ولما رأيت النسر عز ابن دأية وعشش فى وكريه جاش له صدرى

لما شبه الشيب بالنسر ، والشعر الفاحم بالغراب أتبعه ذكر التعشيش والوكر.. وكذلك لما ذكر سبحانه الشراء أتبعه مايشاكله ويواخيه ومايكمل ويتم بانضمامه إليه تمثيلا لخسارتهم وتصويراً لحقيقته، فإن قلت: فما معنى قوله (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) قلت معناه: أن الذى يطلبه

التجار فى متصرفاتهم شيئان: سلامة رأس المال، والربح، وهؤلاء قد أضاعوا الطلبتين معاً، لأن رأس مالهم كان هو الهدى ، فلم يبق لهم مع الضلالة، وحين لم يبق فى أيديهم إلا الضلالة لم يوصفوا بإصابة الربح، وإن ظفروا بما ظفروا به من الأغراض الدنيوية، لأن الضال خاسر دامر[١] ...

فبين فى هذا التحليل مايلى:

١- الاستعارة فى لفظ «اشتروا».

٢- الاستعارة فى لفظ «الضلالة».

٣- الاسناد المجازى فى إسناد الخسران إلى التجارة وهو فى الأصل لأصحابها.

وقد عرف هذا النوع من المجاز، وأشار إلى أنه لابد فيه من القرينة الدالة عليه ، وكذلك كل مجاز لابد فيه من القرينة.

٤- ترشيح الاستعارة بلفظ الربح والتجارة، وقد بين أن الترشيح يجعل المجاز فى الذروة العاليا من البيان، وضرب أمثلة لترشيح المجاز ، وبينه فيها.

هذا بجانب ماذكره من لطائف دقيقة تتصل بتراكيب الآية الكريمة.

- ويقول الزمخشرى فى قوله تعالى: (رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا)[٢] إنما ذكر العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه وهو أصل بنائه، فاذا وهن تداعى وتساقطت قوته، ولأنه أشد مافيه وأصلبه ، فإذا وهن كان ماوراءه أوهن، ووحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هذا الجنس الذى هو العمود والقوام وأشد ماتركب

---

(١) الكشاف : ١/ ١٩٠ - ١٩٤.

(٢) الكشاف : ٢/ ٥٠٢.

منه الجسد قد أصابه الوهن ، ولو جمع لكان قصدا إلى معنى آخر وهو أنه لم يهن منه الجسد قد أصابه الوهن، ولو جمع لكان قصداً الى معنى آخر وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه لكن كلها، وشبه الشيب بشواظ النار فى بياضه وإنارته ، وانتشاره فى الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس وأخرج الشيب مميزا، ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا، فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة(١).

فبين الزمخشرى فى هذا التحليل أموراً هامة هى :

١- السر فى ذكر لفظ «العظم» واختياره علي غيره من الألفاظ.

٢- السر فى الاتيان به مفرداً غير مجموع.

٣- بيان الاستعارة فى «اشتعل الرأس شيبا».

٤- بيان ما فى هذا التركيب من خصائص أسلوبية جعلته مشهوداً له بالبلاغة.

وعلى هذا المنوال الذى رأيناه فيما عرضنا من نماذج يمضى الزمخشرى مبينا دقة النظم القرآنى، ومطلاً ما فيه من عناصر البلاغة ، ولطائف المعانى ، بطريقة فذة لم توجد عند سابقية، واستحوذت على من جاء بعده من المفسرين ، فسار فى طريقه وعلى منهجه كثير منهم.

وبطريقة عبد القاهر والزمخشرى وغيرهما من البلاغيين والمفسرين فى تحليل الأساليب تمثل الدراسات الأسلوبية الحديثة أصدق تمثيل ، وتفضلها بأنها عربية الطريقة عربية المضمون تتلاءم مع الفكر العربى.

---

(١) الكشاف : ٢/٥٠٢.

الأسلوب والأسلوبية:

الأسلوب فى لسان العرب يعنى النهج والطريقة ، وسطر النخيل يسمى أسلوبا ، وكذلك عنق الأسد ، وأنف الرجل ، وكل طريق ممتد أسلوب. وقيل: إن الأسلوب هو الطريق والوجه والمذهب ، والجمع «أساليب» ، وهو الفن ، يقال: أخذ فلان فى أساليب من القول ، أى أفانيين منه[١].

وحين نعود الى القرن الثالث الهجرى نجد ابن قتيبة (٢١٣- ٢٧٦هـ) يعرف الأسلوب بأنه طريقة العرب فى النظم ، ويشير إلى أن الشاعر المجيد «من سلك هذه الأساليب»[٢] ومن «لايسلك فيما يقول الأساليب التى لاتصح فى الوزن ولا تحلو فى الأسماع»[٣] وكان هذا مقياساً لمعرفة فضل القرآن ، فلا يعرفه إلا » من كثر نظره فيه واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها فى «الأساليب»[٤].

وفى القرن الرابع الهجرى نجد القاضى الجرجانى (ت ٣٩٢هـ) يقرر أن الأساليب تختلف باختلاف الطباع والأغراض. يقول: «كان القوم يختلفون فى ذلك ، وتتباين فيه أحوالهم فيرق شعر أحدهم، ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره، وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع

---

(١) ينظر : لسان العرب (سلب) .

(٢) الشعر والشعراء ج١ ، ص ٧٥.

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٢.

(٤) تأويل مشكل القرآن ص ١٠ ، وينظر : الأسلوبية إلى أين «للدكتور أحمد مطلوب فى: مجلة المجمع العلمى العراقى ، ج٣ ، المجلد ٣٩ ، ١٤٠٩ هـ= ١٩٨٨م ص ٢٥٨.

وتركيب الخلق، فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ودماثة الخلق»[١] وعند الامام الخطابى نجد الأسلوب يعنى الطرق والمذاهب وأودية الكلام المختلفة ، وربط بينه وبين الغرض والموضوع[٢].

وفى القرن الخامس نجد عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١هـ) يجعل من الأسلوب والنظم شيئاً واحد ، يقول: «واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه ، أن يتبدئ الشاعر فى معنى له وغرض أسلوبا - والأسلوب: الضرب من النظم والطريقة فيه- فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب فيجئ به فى شعره فيشبه بمن يقطع من أديم نعلا على مثال نعل قد قطعها صاحبها، فيقال قد احتذى على مثاله[٣].

وقد رأينا عبد القاهر فى صفحات سابقة من هذا البحث يفصل الكلام فى مسألة النظم والتأليف والعلاقات بين الجمل، وأن الألفاظ لاتتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة، وإنما تكون المزية والفضيلة حين تكون الملاءمة بين الألفاظ وحين يكون توخى معانى النحو فى أسلوب بعينه[٤].

---

(١) ينظر الوساطة بين المتنبى وخصومه ، ص١٧ . وفى تفصيل كلام القاضى الجرجانى أنظر : الأسلوبية إلى أين ، ص ٢٥٨- ٢٥٩.

(٢) قسم الخطابى الأسلوب الى ثلاثة أنواع منها البسيط ومنها القوى الجزل، وتنظر تفصيل ذلك فى : بيان اعجاز القرآن - ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ، ص ٤٢- -٦٠.

(٣) ينظر : دلائل الاعجاز ، تعليق محمود محمد شاكر ص ٤٦٨ - ٤٦٠ وقارن : الاسلوبية الى أين «ص٢٥٩ - ٢٦٠ وينظر كذلك الموازنة التى عقدها عبد القاهر بين المعنى المتحد ، واللفظ المتعدد: دلائل الاعجاز ، ص ٤٨٩ ، ٥٠٠.

(٤) انظر : دلائل الاعجاز ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

ولم تكن مسألة تباين الأساليب غائبة عن الزمخشرى عند تعرضه للأساليب المختلفة فى القرآن الكريم، فقد ربط بينها وبين المواقف. «ولعل نظرته إلى الالتفات تفصح عن إدراكه لاهمية الأسلوب وصلته بالمعنى»[١].

فبينما يربط عبد القاهر بين الأسلوب وبين النظم، نرى الزمخشرى يربط بينه وبين الغرض والموضوع. ولم يخرج السكاكى (ت ٦٢٦هـ).

وابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) ، والعلوى (ت ٧٤٩هـ) عن هذا الاتجاه كثيرا[٢]. ويأتى الأسلوب عند حازم القرطاجنى (ت ٦٨٤هـ) بمعنى صورة التعبير أو هيئته، والأساليب عنده تتنوع بحسب مسالك الشعراء فى فن القول وبحسب اختلافهم فى الميول والطباع[٣]، وهو تعريف رأينا مثله سابقا عند القاضى الجرجانى فى الوساطة بين المتنبى وخصومه[٤] على أن ابن خلدون فى المقدمة يرى أن الأسلوب هو المنوال الذى ينسج أو القالب الذى يفرغ فيه[٥] ونراه يقرر أن لكل فن أساليبه الخاصة،كما يشير إلى اختلاف الأساليب باختلاف الغرض والزمان والمكان ومقتضى الحال ، فإن «المقامات مختلفة ، ولكل مقام أسلوب يخصه»[٦].

---

(١) ينظر : الأسلوبية إلى أين « ص ٢٦٠ بين الأسلوب والنظم فن حيث التعبير والتصوير والتحسين.

(٢) ينظر على سبيل المثال: مفتاح العلوم ص٩٥ ومابعدها ، والمثل السائر ج١ ، ص ١١٢ ، ج٢، ص١٥ وغيرها ، والطراز : ج١، ض١٥٨.

(٣) ينظر منهاج البلغاء ص ٣٥٤.

(٤) ينظر الوساطة ص ١٧.

(٥) مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٧٠.

(٥) المصدر نفسه ، ص٥٦٨، وينظر تفصيل كلامه كذلك فى «الأسلوبية إلى أين» ، ص٢٦٢ - ٢٦٣.

ولم يهمل البلاغيون الكلام على حسن التقسيم الكلام، فهناك أساليب متعددة وأفنانين ومسالك متباينة تكمن فى اللغة، كاللف والنشر والجمع والتفريق، والتفسير والإيضاح ، والرمز والإشارة ، والتكميل والارداف والتذييل والتوليد ، والانسجام وصحة الأقسام. وهذا ان دل على شئ فإنما يدل على أن دراسة الأسلوب ذات جذور فى البيان العربى، وقد ارتبطت بالدرس البلاغى ومباحثه المختلفة وظل الأسلوب يعنى : طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة فى اختيار الألفاظ وتأليف الكلام[١] ، وأنه «طريقة التفكير والتصوير والتعبير»[٢] ، وهو «قوام الكشف لنمط التفكير عند صاحبه»[٣].

علم الأسلوب الحديث:

والأسلوبية الجديدة تعود إلى ظهور المدارس الأسلوبية الحديثة فى أوروبا. فبعد ازدهار العلوم الطبيعية فى العصر الحديث، طمح علماء اللغة فى إقامة تصورات علمية للغة تماثل تلك التى فى العلوم الطبيعية. وكان لابد من دراسة اللغة فى مجالاتها المتعددة، أعنى الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والأسلوبية. ومن هنا جاء ربط الأسلوب بالدراسة اللغوية فى محاولة لتأسيس العلوم الإنسانية علي قواعد تجريبية وعقلية معا[٤].

---

(١) دفاع عن البلاغة ص ٧٠.

(٢) الأسلوب لأحمد الشايب ص ٣٨.

(٣) الأسلوبية والأسلوب لبعد السلام المسدى ، ص ٦٤.

(٤) انظر : علم الأسلوب ، مبادئه واجراءته ، د. صلاح فضل النادى الأدبى الثقافى بجده ، ط ٣ ، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

ومع أن مصطلح الاسلوب the style يرجع إلى عصور متقدمة، فان قواعده العلمية لم تقرر فى أنماطها الحديثة إلا فى السنوات الأول من بداية القرن العشرين ومنذ الخمسينات من هذا القرن نرى معالم الأسلوب أو مصطلح الأسلوبية Stylistics تتحدد على يد شارل بالى (١٨٦٥-١٩٤٧م) وإن لم يكن مفهومه لعلم الأسلوب : دراسة النص من الناحية الأدبية «حيث كان اهتمامه منصباً على دراسة اللغة نفسها [١] وان كان بالى قد أعطى لغة الأدب اهتماماً خاصاً من حيث تعبيرها عن الوحدان، غير أنه وقد خلف أستاذه سوسير (١٨٥٧-١٩١٣م) فى كرسى علم اللغة العام بجامعة «جنيف» يظل عالما لغويا ، وعلم الأسلوب عنده لايعدو أن يكون واحدا من العلوم اللغوية، تماما كعلم الأصوات، وعلم الصيغ، وعلم التراكيب[٢] وعلم الأسلوب عنده هو : «العلم الذى يدرس وقائع التعبير اللغوى من ناحية محتواها العاطفى أى التعبير عن واقع الحساسية الشعورية من خلال اللغة، وواقع اللغة من خلال هذه الحساسية» [٣] أى أن

---

(١) ينظر : علم الأسلوب ، ص٢٠ ومابعدها ، والأسلوب والأسلوبية د. عبد السلام المسدى ، تونس ١٩٧٧ ، ص ٣٧ - ٤٠.

(٢) أنظر الفصل الذى عقده الدكتور صلاح فضل عن المدرسة الفرنسية التى يرد بالى قطبا لهما ، فى : علم الاسلوب ، ص ٢٠ -٤٨.

(٣) المصدر السابق ، وانظر مقال بالى نفسه : «علم الاسلوب وعلم اللغة العام» ضمن كتاب : «اللغة والحياة» Le lanfofe et lavie جنيف ط٣ ، ١٩٥٢ ص٥٣ ٧٤ وقد قام بترجمته الدكتور شكرى محمد عياد ضمن مقالات أخرى ترجمها أما العربية فى : اتجاهات البحث الاسلوبى ، دار العلوم للطباعة والنشر الرياضى ١٤٠٥، ١٩٨٥ ، ص ٢١ -٤٨ والأسلوبية والبيان العربى للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى وآخرون ، الدار المصرية اللبنانية القاهرة ،١٤١٢هـ= ١٩٩٢، ص١٤.

تجـويد الملامح الأسلوبيـة يكون فى النظر إلى التـغـيـرات التى تطرأ على الطريقـة فى المعنى المطروح أو الرسـالة «بين المبـدع والمتلقى مما يؤثر على طابعها الجمالى» أو على استجابة القارئ العاطفية.

ولما كان اهتمام علم الأسلوب منصبنا على دراسة الوقائع اللغوية فى النص الأدبى واسـتـخـراج الطاقـات والامكانيـات الكامنة فى اللغـة التى لايستطيع استخدامها والاستحواذ عليها إلا الكاتب الناجح، إذ هى أى اللغة مادة صوتية ونظام من الرموز المخصصة لنقل الفكر لكنها ذات أصل نفسى واجتـماعى، فقد تفرع اتجاهات فى علم الأسلوب: أحدهما يختص بعلم أسلوب التعبير الذى أشار إلى اختلاف الأساليب والصيغ باختلاف الغرض والزمان والمكان ومقتضى الحال ، حيث المقامات مختلفة ، و «لكل مقام أسلوب يخصه»[١].

هذا فضلا عن تعدد الاتجاهات وتباين الآراء والنظريات نحو الأسلوب والأسلوبيـة ، ثم الزخم الهـائل من المؤلفـات فى هذا المجـال ، فـالكتب والمقالات التى ألفت فى النظرية الأسلوبية قد تربو على أربعة آلاف مؤلف: وإلى حـينه لم يسـتـقـر القـول فى مـصطلح الأسلوب ولم تتـحـدد مـعـالم الأسلوبيـة تحديداً تامـاً ، ولازالت الآراء مـتـفـاوتة فى البـحث عن الأسس الموضـوعـيـة لإرسـاء علم الأسلوب. فـقـد قيل فى الأسلوبيـة إنهـا: «منهج لسانى تقوم على البحث فيـما يتميز به الكلام الفنى عن بقية مستويات الخطاب أولا وعن أصناف الفنون الإنسانية ثانيا، بمعنى أنها «وصف للنص الأدبى حسب طرائق مستقاه من علم اللسان»[٢] ، فضلا عن أن هناك وجهة

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٦٨.

(٢) انظر الأسلوبيـة والأسلوب ، ص ٣٤ ، ودليل الدراسـات الأسلوبيـة ، ص ٧ ، والأسلوبية الى أين ، ص٢٦٦ ومابعدها.

نظر عالم النفس فى شأن الأسلوب ، ووجهة نظر البلاغى والفسيولوجى ، والناقد الأدبى ، والفيلسوف اللسانى ، فهذا «ريفاتير» لايخرج عن نطاق اللغة ، والثانى : علم الأسلوب الواوى الذى يدرس التعبير نفسه فى علاقته بالأشخاص المتحدثين به ، أى دراسة الوقائع الأسلوبية فى لغة ما مع تحديد بواعثها وأساليبها وربطها بمقاصد الأشخاص المتحدثين بها ، ولهذا نرى أن مفهوم الأسلوب عند «جيراو» أحد تلاميذ «بالى» يكون فى: « مظهر القول الذى ينجم عن اختيار وسائل التعبير ، هذه الوسائل التى تحددها طبيعة ومقاصد الشخص المتكلم أو الكاتب(١).

وليس من هدفنا هنا الإحاطة بكل النظريات والمدارس الأسلوبية، فهناك المدرسة الفرنسية وقطب رحاها شارل بالى كما أسلفنا ، وهناك المثالية الالمانية التى تسعى إلى إيجاد تطابق وثيق بين المقولات النحوية والنفسية، أى بين الفكر والعبارة، ونرى أن التطابق بين اللغة والعقل إنما هو القانون الطبيعى ، وزعيما هذه المدرسة «كارل فوسلير» وتلميذه «ليوسبتسر» وهناك الاتجاه النقدى لدى الايطاليين والاسبان ، ففى عام ١٩٣٠م نشر الباحث الايطالى «ديفوتو» كتابه عن دراسة علم الأسلوب الايطالى، كما استطاع الباحث الاسبانى أو مادو ألونسو. تقديم تحليلات أسلوبية، وعرض وجهة نظره فى عدة مؤتمرات أقيمت فى الولايات المتحدة الامريكية واعتبر علم الأسلوب العلم المنوط به شرح النظام التعبيرى للأعمال الأدبية ، و«أن كل خاصية لغوية فى الأسلوب تطابق خاصية نفسية، وهذا يذكرنا بكلام ابن خلدون السابق ويرى أن «الدراسات

---

(١) علم الاسلوب ، ص ١٤٤.

(٢) المرجع السابق ص ٨٣ - ٨٤.

الأسلوبية الحديثة تتعامل مع النص الأدبى على افتراض منهج ثابت أو كالثابت للعناصر اللغوية ، والصوتية والصرفية والنحوية ، أما بالنسبة للمكونات الدلالية ، فتتفاوت النظرة إليها لاعتبارات المقام والمناسبة وزمن النص وزمن القارى وزمن الناقد ، أى أن مسألة ضبط انتماء النص لاتدرك دون التوغل فى نواميس الجهاز اللغوى»[١] ونظرته هذه بطبيعة الحال - لابد أن تذكرنا برواد البلاغة العربية والمفكرين والنقاد الذين أشرنا إلى بعض من آرائهم فى هذا المجال، مثل القاضى الجرجانى وعبد القاهر والسكاكى وابن خلدون..[٢].

واذا كان من طموحات البحث الأسلوبى واظهار الخصائص الاسلوبية للأجناس الأدبية، والكشف عن الطاقات والامكانيات الكامنة فى لغة النص والأدبى ، واستكشاف ماتقدمه الكلمات والتراكيب من مسالك أسلوبية، وقيم تعبيرية واكتشاف العلاقات بين هذه الجزئيات، فقد كان للبلاغة العربية الكلام عن هذا كله مع دراسة الأسرار الكامنة وراء التراكيب اللغوية فى أعمال بعينها[٣] خذ على سبيل المثال قول الخنساء:

أعينى جودا ولاتجمدا ألا تبكيان لصخر الندى

---

(١) أنظر فى تفصيل ذلك فى : «محاولات فى الأسلوبية البنيوية» لريفاتير ، ت.د. عبد السلام المسدى فى حوليات الجامعة التونسية ،ع١٠ ، س ١٩٧٣م ، ص ٢٧٣- ٢٨٧ ، وانظر فى هذا السياق أيضا: الاسلوبية والأسلوبية ، له، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ط٢ ، ١٩٨٢ ، ص ٨٣ - ٨٤ ، وص ٩٧ - ١٠٦.

(٢) انظر الصفحات المتقدمة من هذا البحث.

(٣) هذا النمط نجده عند البلاغيين الغرب فى الدراسات القرآنية وقد قدمنا نماذج منها لعبد القاهر والسكاكى والزمخشرى.

ففى الشطر الأول خرج الاستفهام إلى التمنى، وفى الثانى خرج إلى التعجب، وهذا نمط من اكتشاف النواشج والترابط الخاص بين الكلمات. ويتجلى الاهتمام بهذه العلاقات فى تحليلات عبد القاهر للأساليب حيث يركز على مواقع الكلمات وموادها وصيغها، وما توحى به ، وترمز اليه ، وتلاؤمها مع ماقبلها ومابعدها وأثر كل ذلك فى أداء المعانى المرادة، وعلى سبيل المثال يسوقه قول البحترى:

بلونا ضرائب من قد نرى فلما أن رأينا الفتح ضربا
هو المرء أبدت له الحادثا ت عزما وشيكا ورأيا صليبا
تنقل فى خلقى ســـــؤدد سماحا مرجى وبأسا مهيبا
فكالسيف أن جئته صارخا وكالبحر إن جئته مستثيبا

ثم يقول: فإذا رأيت - هذه الأبيات - قد راقتك وكثرت عندك، ووجدت لها اهتزازا فى نفسك فعدنا نظر فى السبب واستقص فى النظر ، فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدم وأخر ، وعرف وفكر ، وحذف وأضمر، وأعاد وكرر، وتوخى على الجملة وجها من الوجوه التى يقتضيها علم النحو، فأصاب فى ذلك كله، ثم لطف موضع صوابه، وأتى مأتى يوجب الفضيلة.

أفلا نرى أن أول شئ راقك منها قوله «هو المرء أبدت له الحادثات» ثم قوله فكالسيف، وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ، لأن المعنى لامحالة: فهو كالسيف ، ثم تكريره الكاف فى قوله «وكالبحر» ثم أن قرن إلى كل واحد من التشبيهين شرطا جوابه فيه، ثم أن أخرج من كل واحد من الشرطين حالا على مثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله «صارخا» هناك ، و «مستثيبا» «ههنا؟»[1].

---

(١) دلائل الاعجاز : ٨٥ - ٨٦.

واذا كان من اهتمامات البحث الاسلوبى المحافظة على ضبط انتماء النص الأدبى إذ النصوص الأدبية كما يقول يول هير نادى: انما هى أعمال لغوية تتمتع صياغتها اللفظية بأهمية غير عادية، لذلك يجدر بنا أن نقاوم أية محاولة لاستبدالها بصياغات أخرى فتوكيداتها محددة بدقة، وأفكارها معبر عنها بطريقة معينة، وتتمتع بقوة فريدة ، وتعبيرها بصورة عامة يظل فى الذاكرة»[1] فقد كانت للدراسات البلاغية فضل السبق فى المحافظة على جوهر النص الأدبى، وأنه ينبغى حماية النص من سوء الفهم ، وأنه لابد من تتبع النسق الداخلى للأداء اللغوى مع مراقبة السياق ببصيرة نافذة ويقظة كاملة لاستكشاف فحوى النص ومقتضاه خلف السطح اللغوى، مع عدم التعرض لتأويل النص تأويلا يحمله مالا يحتمل ، فلا يجوز بأى حال من الأحوال - عند العلماء المحققين - لوى عنق النص ولا أن يساء فهمه ومن الذى يسيئ فهم النص غير النقاد انفسهم.

يقول عبد القاهر فى هذا السياق: «لاسبيل إلى أن تجئ إلى معنى بيت من الشعر، وفصل من النثر، فتؤديه بعينه وعلى خاصيته وصنعته بعبارة أخرى، حيث يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك، لايخالفه فى صفة ولا وجه ولا أمر من الأمور، ولايغرنك قول الناس قد أتى بالمعنى بعينه ، وأخذ معنى كلامه ، فأداه علي وجهه، فإنه تسامح منهم ، والمراد أنه أدى الغرض ، فأما أن يؤدى المعنى بعينه على الوجه الذى يكون عليه بنى الكلام الأول ، حتى لاتعقل هنا إلا ما عقلته هناك، وحتى يكون حالهما فى نفسك حال الصورتين المشتبهتين فى عينيك كالسوارين أو

---

(١) انظر : بول هيرنادى فى «ماهو النقد» ت .د. سلامة حجاوى ، بغداد ١٩٨٩، ص٣٧.

الشنفين ، ففى غاية الاحالة ، وظن يفضى بصاحبه الى جهالة عظيمة»[١] وهذا يعنى أن لكل أديب أسلوبه الخاص الذى يتميز به عن غيره ، وأنه له طريقته فى استخدام النسيج اللغوى وأن لكل نتاج أدبى وحدته التركيبية التى تدفع به الى بلوغ غايته.

هجمة الاسلوبيين على البلاغة:

وبعد كل الذى أوردناه عن طموحات البحث الاسلوبى فى ضوء معطيات البلاغة ووظائفها ، فانه يمكننا القول دون أن ندعى حسم المسألة- أن تعريفات الأسلوب التى يقدمها لنا علماء اللسان تعريفات غير كاملة، وأنه لايمكن بأى حال من الأحوال أن تكون الأسلوبية وريثاً للبلاغة العربية كما قد يلوح لبعض الدارسين والمهتمين من الأدباء والنقاد والأسلوبيين ولاسبيل للاستغناء عن الدرس البلاغى فى تناول وتحليل النصوص ، وأن الحكم عليها بالموت والعجز والعقم إنما هى برهنة عجلى.

لقد سبق لميشال آريفاى أن يقال فى مقال له كتب سنة ١٩٦٩م: «كأنى بالأسلوبية توشك أن تموت»[٢] غير أننا فى المقابل نرى بعض الباحثين يرون الإعلان عن موت البلاغة والاستغناء عن وظائفها فى تحليل النصوص الأدبية وإظهار خصائصها الأسلوبية، وأن يكون البحث الأسلوبى الوريث الشرعى لها.

فالدكتور صلاح فضل فى مقدمته لكتابة الموسوم: «علم الاسلوب؛ مبادئه واجراءاته يصرح بأن المباحث البلاغية لم تعد قادرة على متابعة

---

(١) انظر دلائل الاعجاز ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى ، القاهرة ١٩٦٩، ص ١١٤.

(٢) انظر : nichel Arrirve , in longue Fromce, aise, no 3 ; P, 3.

مستجدات العصر ، وأنها بذلك قد انفصحت عن الحياة وأصبحت ذات وظيفة تقليدية ويرى أن «مستوى الدراسات اللغوية الحديثة، فى العالم العربى المعاصر ، قد يؤذن بامكانية احتضان البذور الأولى لعلم الاسلوب»[١] فى حين نراه فى الوقت نفسه يقول عن تجربة البلاغة العربية: «كانت البلاغة العربية استجابة فذة لحاجات وضرورات داخلية حميمة فى بنية اللغة القومية والثقافة الاسلامية، ومع ذلك فقد تغذت بلبان الفلسفة والبلاغة اليونانية ، واصطنعت كثيراً من مناهجها وأدواتهما ، دون عقوق لمنبعها الأصيل، أو مساس بعبقرية لغتها الخاصة ، فلم تأخذ سوى ماتحتاج إليه مما لايتضارب مع عصارة الحياة فيهما ، ولاينحرف بطبيعة الرسالة المنوطة بها، ولم تلبث أن تكونت بداخلها تيارات ومدارس بعضها أدبى بيانى ، والثانى كلامى منطقى ، والثلث مغربى أرسطى ، حتى بلغت مرحلة من الاستواء العلمى ، والنضج التاريخى جعلتها تقف شاهداً على قدرات أهلها وانجازاتهم الحضارية المرموقة فى أزهى غصور العطاء العربى المجيد»[٢].

واذا كان الأمر كذلك وقد بلغت البلاغة العربية «مرحلة من الاستواء العلمى والنضج التاريخى» وأصبحت علما من العلوم فكيف ترمى بالعجز والانفصام عن الحياة؟

لقد وقفنا على جذور الأسلوبية فى البيان العربى وذكرنا نماذج من تحليلات البلاغيين للأسلوب فكيف ندعو لهذه بالحياة ونعلن موت الأخرى والجذور والينابيع واحدة !؟

---

(١) علم الاسلوب ، النادى الأدبى الثقافى بجدة ط ٣ ، ١٤٠٨هـ= ١٩٨٨م، ص٧.

(٢) نفسه.

وبهذا التصور الذى رأيناه عند د. صلاح فضل عالج الدكتور شكرى محمد عياد موضوع العلاقة بين البلاغة العربية وعلم الأسلوب فى فصل عقده لهذا الغرض من كتابه: «اتجاهات البحث الأسلوبى» الذى ترجم فيه الى العربية سبعة أعمال تمثل اتجاهات متباينة فى البحث الأسلوبى لنقاد وأسلوبين كشارل بالى ولبوسيتسر ، وستيفن ألمان وغيرهم.

لقد وصف عياد البلاغة العربية فى أوج ازدهارها بالجمود والتحجر، وراح يتناول مفهوم السكاكى للبلاغة فى مفتاح العلوم، «وتلخيص المفتاح» و «شروح التلخيص» ناعيا على جامعاتنا تدريس «الإيضاح» للخطيب القزوينى ، ذلك أن القزوينى فى محاولاة «تحديد الخطوط الأساسية لعلم البلاغة بصورة أكثر حسماً مما فعل السكاكى قد وقع كما يرى الدكتور عياد- فى مزيد من الاضطراب والتناقض[١].

ولم يعدم أن يوجه اللوم كذلك على عبد القاهر متهما الجميع بالقصور فى مواجهة مشكلة المعنى أو «الافادة» مواجهة مباشرة[٢] داعيا الى إعلان موت البلاغة لأنها - كما يرى- «لم تلتفت إلى الخصائص الأسلوبية الفردية كما التفت علم الاسلوب الحديث» و «لاتتأثر بالفروق الفردية أو الطبقية أو البيئية إلا تأثرا ظاهريا فقط ، لأن قوانينها متحققة وثابتة فى أثر لغوى مثالى لايمسه تغيير ولاتبديل ولا اختلاف[٣].

---

(١) اتجاهات البحث الأسلوبى ، دار العلوم ، الرياض ، ١٤٠٥ هـ= ١٩٨٥م ، ص ٢١٩.

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٢٣.

كما نراه يعيب على البلاغة العربية أن تتداخل فيها مباحث علم المعانى مع مباحث الدلالة، ومباحث النحو ومباحث المنطق، وأن تبقى، أى البلاغة مزيجا من علم الدلالة وعلم الأسلوب. كما نراه يتحدث عن ظاهرة «الانحراف» (أى مخالفة الطريقة العادية أو المتوقعة فى التعبير» كظاهرة مهمة فى الدرس الأسلوبى الحديث ويلوم أولئك الذين يربطون بين هذا المفهوم ومفهوم «خلاف مقتضى الظاهر» فى البلاغة العربية ولا بأس فى أن نوافقه الرأى هنا فى أن قيمة «الانحراف» فى البحث الاسلوبى تنحصر فى تعبيره عن الشخصية(١).

وفى الختام ، نرجو أن يكون هذا البحث المتواضع قد توصل الى الغاية التى قصدها والهدف الذى عناه ، وأن تكون الصدرة قد اتضحت فى العلاقة بين المباحث البلاغية فى التراث العربى والدرس الأسلوبى فى الفكر المعاصر، وأن تكون هذه الورقة قد فتحت الباب أمام بحوث أخرى فى هذا المجال، فلا زال الطريق طويلاً والمشوار شاقا.

أما عن أوجه التشابه والاختلاف بين طبيعة المنهجين - إن صحت التسمية - فقد كان من أهداف هذا البحث التوصل إلى المفهوم البلاغى فى تناول وتحليل النصوص الأدبية بما هى دراسة للغة بصفة عامة، فوجدنا أن البلاغة تتحدث عن فصاحة الكلمة وبلاغة الأسلوب، ومسألة النظم والتأليف والتركيب والربط بين أجزاء الكلام، والنظر فى جزئيات التراكيب، ومدى النواتج والترابط بين تلك الجزئيات ، وأن وظيفة اللغة الأدبية تكمن فى التعبير الدقيق عن التجربة وأن للكلام اعتبارات مختلفة ومقامات متفاوتة ، وأن النص الأدبى المتميز إنما هو بناء لغوى محكم الأجزاء تحفظ

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٣٣ - ٢٣٥.

اللغـة للناس به وثمـار تجاربهم ، وأنه لابد من المحـافظة على النص الأدبى بين المبدع والمتلقى من سوء فهم الناقد . كل هذا وغـيره ظهر واضحا عند البلاغـيين فى علم البيـان وعلم المعـانى ، ولاتقل مبـاحث البديع شأنا عن غيرها فى إظهار الأنماط الأسلوبيـة ، فالمقابلة والطباق ، والتناظر والتناسب والخبـابى والمشـاكلة فى الكلام ، والسـجع والفـواصل ، والتـذييل والتكمـيل والايغال والتكثيف كانت مما درسه البلاغيون نظريا وتطبيقيا ، وأشاروا الى الإبداع اللغـوى فى النصـوص التى ترد فـيهـا هذه الأنماط وتنتظم فى إطار لغوى بعيدا عن التكلف والاستكراه.

ولعلك تدرك أن مـاسـقناه فى هذه البـحث من أمـثلة تعـرض لهـا البلاغيون بالدرس والتحليل فى أعمال بعينها إنما هو للاستشهاد والبرهنة على مدى العمق والتوغل البلاغى ، فى دراسة الأساليب وأنماط التعبير، للكشف عن الخـصـائص الأسلوبيـة، ومـصـدر الإبداع اللغـوى فى الأعـمـال الأدبية. الأمر الذى نجده فى نفسه فى النظريات الأسلوبية الحديثة.

وأخـيـراً ، فـإن هذا البـحث يأمل أن يكون قـد أدرك الغـاية ووصل الهدف الذى من أجله أنشئ ، وأن يكون قد قـدم دراسة للأسلوبيـة والبيـان العربى علي ضوء جديد ، يجمع بين الأصالة والمعاصرة وبين القديم والجديد، وأن يكون قد بنى لبنة تضاف إليها أخرى فى بناء البحث العلمى.

والله الموفق ،،

د/ عوض معيوض بن زويد الجميعى

الاستاذ المساعد بكلية اللغة العربية

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

أهم مراجع البحث

١- الأسلوب . أحمد الشايب.

٢- الأسلوبيـة الى أين؟ د. أحـمـد مطلوب . (مـجلة المجـمع العلمى العراقى) جـ٣، مجلة ٣٩.

٣- الأسلوبية والأسلوب . عبد السلام المسدى . تونس .

٤- الأسلوبية والبيـان العربى. د. محـمد عـبد المنعم خفـاجى وآخـرون . الدار المصرية اللبنانية.

٥- الإيضاح - القزوينى. ت الصعيدى . وت خفاجى.

٦- اتجاهات البحث الاسلوبى . د. شكرى عياد . دار العلوم - الرياض.

٧- أسرار البلاغة . عبد القاهر . ت رشيد رضا - المنار.

٨- بديع القرآن. ابن أبى الاصبع . ت د. حفنى شرف . نهضة مصر.

٩- البـرهان الكاشف عن اعـجـاز القـرآن. ابن الزملكانى ت.د. خـديجـة الحديثى ود. مطلوب . بغداد.

١٠- البيان والتبيين . الجاحظ . ت عبد السلام هارون. الخانجى.

١١- بيـان اعـجـاز القـرآن. الخطابى ضـمن ثلاث رسـائل . ت. خلف الله وسلام. دار المعارف.

١٢- البلاغة والفصاحة .د. محمد جابر فياض . دار المنارة - جدة.

١٣- البلاغة القرآنية غى تفسير الزمخشرى .د. محمد أبو موسى. دار الفكر .

١٤- تأويل مشكل القرآن. ابن قتيبة . ت صقر . دار التراث. القاهرة.

١٥- دفاع عن البلاغة . أحمد حسن الزيات.

١٦- دلائل الاعجاز. ت. شاكر . ط / الخانجى ، ت خفاجى ط / الكليات الأزهرية.

١٧- شرح المفصل. ابن يعيش . الدار المصرية اللبنانية.

١٨- الشعر والشعراء . ابن قتيبة . ت شاكر . ط / دار المعارف.

١٩- الطراز . العلوى . ط/ لبنان.

٢٠- علم الأسلوب مبادئه واجراءاته. د. صلاح فضل نادى جده الأدبى.

٢١- الكتاب . سيبويه. ت هارون . ط/ الخانجى.

٢٢- الكشاف عن حقائق التنزيل- الزمخشرى . ط/ الحلبى.

٢٣- لسان العرب . ابن منظور . لبنان.

٢٤- ماهو النقد . بول هير نادى ت سلامة حجازى . بغداد.

٢٥- محاولات فى الأسلوبية والبنيوية . ريفاتيرت المسدى . تونس.

٢٦- المعانى فى ضوء أساليب القرآن .د. عبد الفتاح لاشين . دار المعارف.

٢٧- مفتاح العلوم - السكاكى . ت زرزور .بيروت.

٢٨- المفردات -الراغب الاصفهانى . بيرت.

٢٩- مقاييس اللغة - ابن فارس ت. هارون . دار الجيل.

٣٠- مقدمة ابن خلدون ، بيروت.

٣١- منهاج البلغاء . القرطاجنى . ت ابن الحواجة. ط / تونس.

٣٢- النكت فى اعجاز القرآن - الرمانى - ت خلف الله وسلام. دار المعارف .

٣٣- الوساطة بين المتنبى وخصومه- الجرجانى - ت البجاوى وأبو الفضل الحلبى.

****